الفصل الرابع

الجاذبية غزو للذات أولاً

obeikandl.com

١- ما هو المهم أن نكون أم كيف نظهر؟

عندما أختار أن أعيش حياتي كما تأتي به نفسي فإنني لا أمثل مبدأً بحد ذاته بل شيئاً أكثر سحراً، شيئاً ما ينبض في أعماقي.. يرفل بالحيوية ويبحث للإفلات مني.

تقول المرأة على الأغلب في مرآتها: كوني جميلة! لابد أن تكوني جميلة!

بينما يتساءل الرجل: كيف تكون جميلاً؟

هناك إذن مقاربتان مبسطتان جداً للجاذبية ولكنهما حقيقيتان، تساؤل الرجل ينطوي على إرادة في تطوير ما يملك من "الجمال" في حين يتضح أن المرأة تريد "تصنيع جمالها" ومن النساء من تهذي بخلق جديد!

ولكن كيف؟

هناك من يعكف على تحسين مظهره بوسائل تجارية شتى لن أتكبد العناء في ذكرها وهناك من يتصرف على أساس قبول مظهره الخارجي طبيعياً، وإضفاء المزيد عليه من شخصيته. وسواء تعلق الأمر بهذا أو ذاك المهم هو النفاذ إلى الآخر واستحواذ إعجابه الذي لا ينقضي بزوال مظهر عابر.

إنني أميل إلى الحكم بمرارة كلما تعلق الأمر بالجمال الدعائي الأجوف وزاد الطلب المرضي عليه وكلما تأكد هوس غزو الآخر عن طريق المظهر.

الإنسان الجذاب هو فنان قبل أن يكون من روّاد محالّ العناية بالبشرة وعيادات الجراحة التجميلية.

الجاذبية لا تُشرى وهي ليست خدمة على كل حال. إنها نتيجة تعبير حي عاطفي تصوّري لشخصية تتطلب الاختلاف والتمايز. إنها نتيجة تشغيل للحرية الداخلية.

وإذا كانت الجاذبية ليست للبيع لتشرى فهذا يعني أنها في متناولنا جميعاً. إننا نمتلك الوسائل لبلوغها.

ولكن هذه الوسائل كانت قد قُمعت لقرون غابرة في نفوسنا بسلطة القشرة الدماغية والطريق المؤدية لإعادة الروح إليها ليست قبالة خطونا.

٢- تعب العقل

استحوذ العقل على السلطة منذ قرون في العالم وكان السبيل إلى الخلاص من الجهل والتقرب من الحقيقة وتسليط الضوء على وظائف الحياة كافة وعلى خفايا التاريخ وأسرار الكون وقد ناضل المدافعون عن العقل طويلاً ومريراً في سبيل ذلك وفقدوا الكثيرين منهم شهداء نبلاء.

لقد فكر الإنسان منذ الأزل بأن العقل هو السبيل إلى تراجع التحجر والشمولية، وأن العقل هو الذي يحسن علاقات الفرد الاجتماعية بغيره. إلا أن العقل قد تلقى نكسات عديدة في القرون الثلاثة الماضية حيث تربع على السلطة أناس مارسوا الرعب والاضطهاد باسمه وتحت يافطته!

ولكن هل هناك من حلول أخرى لمجابهة الظلم الاجتماعي، لمجابهة الفظاعة والتعصب غير العقل على مرّ الأزمنة وتوالي الشعوب؟

لقد كان حدس معظم المفكرين في العالم ينصب على ضرورة حكم العالم بالعقل، حكم مبني عل التسامح المتبادل والدفاع عن الحريات الشخصية..

وأنه لابد أن يكون العقل هو الأساس في إدارة التاريخ في العالم إذ يسمح بتطور التقنيات ويأتي بالازدهار ويؤملُ منه الوئام والسلام..

إنه كلام جميل يحلو لبعض المنظّرين ترداده خاوياً في القرن الحالي للأسف.

أين نحن من هذا كله؟

لقد أضحى العقل يُستعمل لكل المآرب وأصبحت التقنيات المتطورة في أياد تجهل الغاية الإنسانية منها وبات الازدهار منشوداً في خضم تردي الأوضاع المتزايد في العالم وعمق الهوة ما بين الشعوب.

أما الوئام فهو إلى ضياع تام والسلام محتضرٌ تحت ناظرنا.

يتراجع احترام الذات الإنسانية لتغور معها حقوقها الأساسية من عمل وسكن ونشاط.. بل وحرية في الحياة الكريمة وكأننا نحضر لأمسية تأبين العقل المغتال أو الراحل تعباً.

رُفضت الأحاسيس زمناً ومعها الانفعالات صمّام أماننا لكونها غير منتجة وبحجة مناوأة نهج العولمة* الاقتصادية بالدرجة الأولى.

وبدأنا نتحسس نفثات الوحش القادم بعوز العواطف والعزلة في كل مراحل العمر.

بدأنا نستشعر ذلك بكثرة الانتحارات ما بين الأعمار النشطة الناضجة في العالم.

وبدأنا نتلمس في أوساطنا تعب الناس جميعاً، أرقهم وانحطاطهم النفسي وضعف دفاعاتهم المناعية وتزايد الأرج في أجسادهم والتهافت على استهلاك المهدئات ومضادات الاكتئاب وغيره..

كما لجأ البعض إلى حدّ تعاطي المخدرات والمهلوسات وما إلى ذلك من سموم قاتلة..

إن ما جلب القوة في التاريخ لمجتمعاتنا هو نفسه الذي يجلب لها الويلات في العصر الحديث، حكم الظلم باسم العقل، لقد انقلب السحر على الساحر.

ولكن هل من بديل أو بالأحرى هل من منقذ؟

---

* كثر الحديث مؤخراً عن مصطلح "العولمة" بين المنظّرين وفي الصحافة العامة وغالباً ما تستخدم الكلمة دون توضيح.

تشير العولمة إلى مجموعة من الإجراءات تجعل العالم أكثر اندماجاً واعتماداً بعضه على بعض.. تعتمد فيه الشركات بعضها على بعض وترتبط فيها الاقتصادات الوطنية بعضها ببعض وسيطرة نخبة سياسية واقتصادية جديدة غير خاضعة للمحاسبة إلى حد بعيد، هي سيطرة مركزية متجانسة لمن في يده زمام الأمور..

سلطة هائلة في أيدي طبقة عالمية حاكمة جديدة تعتمد بلا رحمة على الاستثمار الأمثل للإنسان.

obeikandl.com

إن حكم القشرة الدماغية أو الفكر العقلاني الذي كان لزمن العامل الأساسي لتكيف وتطور حياتنا الاجتماعية يعمل اليوم على فرملة هذا التكيف وعلى مرأى من عقلاء القوم أيضاً. لماذا؟

لأن حكم القشرة الدماغية لم يعمل على تطوير مشاعرنا والتخفيف من ثوراتنا الداخلية ولم يدفع بنا خارج مناطق الظل في نفوسنا التي دفعت إلى الحروب والدمار والاستغلال. لأن حكم القشرة الدماغية لم يستطع تغييب العزلة عن حياتنا ولم يأتنا بالحب الذي ننشد للتوازن.

هذا التوازن هو المنقذ الحقيقي.

لابد من عودة التوازن هذا برد الاعتبار للقيم العاطفية التي يديرها الجهاز الطرفي بحب الذات بحب الآخر وباحترام النفس باحترام الآخر وبالتضامن والدفاع عن المشاعر بالدفاع كذلك عن قيم دماغ العقل نفسه ولكن ضمن حدوده "العاقلة" وبحجمه الطبيعي.

إن ما يعمّ اليوم من الأمراض النفسية الجسدية هو من فعل ذلك الاختلال في التوازن ما بين فعل كل من دماغ العقل السيّد والجهاز الطرفي غير المعتبر، ما بين تشقّق جذع الشجرة ونسغها الضائع.

إن العقل هو سمة العالم، يعمل على ترميز وتشريع القوانين التي نخضع لها جميعاً أما الجهاز الطرفي، دماغ الجاذبية، فهو شيء آخر تماماً، إنه التعبير عن الذاتية في الفرد وإعلان اختلافه بتنفس الحرية.. هوية شخصية حقيقية.

إن اختلال التوازن ما بين الجهاز الطرفي (حيث تتولد خلجات الجسم العاطفية) من جهة والقشرة الدماغية (حيث تتولد وظيفة الرقابة على تلك الخلجات العاطفية) من جهة أخرى قد أوصل إلى هذه الحالة من تعب العقل!

وهذا ما يتمثل في أيامنا في ظهور اضطرابات سلوكية غير مسبوقة كانعدام الشهية أو النهم والاضطرابات القهرية والإحباط أو النشاط المفرط.

obeikandl.com

إن القشرة الدماغية التي لم تتطور منذ ملايين السنين وجدت نفسها فجأة في مجابهة بيئة بشرية تنشد الكمال والاستحواذ بما يشبه الهوس فعلاً.

لقد فقدت هذه القشرة الدماغية كما يبدو قدرتها على التكيف ومن السهل على الجاذبية لعب دور المنقذ في إعادة التوازن المفقود.

٣- منغّصات قوة الجاذبية

إن فهم الإنسان لمشاعره والتعبير عن حريته ليس بالأمر السهل، فالعدو الرئيسي يكمن لنا في نفوسنا كالخوف والوسوسة أو التدثر بالتقاليد والأعراف على علاّتها.

إن الحرية لا تُشعر بالأمان على الدوام والضغوط للدخول ضمن الصف مُطبقةٌ علينا، مستمرة لا تهدأ..

إن دماغ العقل المتمركز في الفص الأيسر من القشرة الدماغية يستكشف العالم من حولنا، يحلل الأمر المفروض ويقبل أو لا يقبل بمعطياته ويمكنه مساعدتنا في التعبير عن مواقفنا وشكوكنا.

إنه سلاح للحرية المرتبطة بالذكاء التحليلي والاستنتاجي الذي نبني على أساسه فكراً لامعاً مشعاً ولكنه بارد..

تضخَّم حجمُ وفعلُ هذا الدماغ على مرّ التاريخ على حساب الدماغين الأخريين، الدماغ الإعاشي والجهاز الطرفي "دماغ الجاذبية". وعمل على تثبيط بل إيقاف الدماغ الإعاشي عن عمله جزئياً بحكم التطور الطبيعي ولكنه تعرض في الوقت نفسه للجهاز الطرفي وهذا أمر مقلق إذا علمنا أن المشاعر والانطباعات والحدس وعلاقتنا بالفن والشعر وغيره مواد بناء قوية لبناء الحرية في كينونة الأفراد.

إن فهم العالم من حولنا شيء رائع ويكون أروع لو حلّ العقل على الجاذبية ضيفاً خارج حدود الهيمنة والإزاحة.

obeikandi.com

إنها فكرة جديدة أخاذة سلكت طريقها بقوة إلى نفسي منذ عقود قليلة وتهدف إلى التخفيف من وطأة القشرة المخية على الجهاز الطرفي والتي نالت كثيراً من شروط وجودنا حتى الآن.

لابد من تحديد وتحييد منغصات قوة الجاذبية هذه حتى نضمن رحيل الصقيع عنها.

إن الحرية لا تُشعرُ بالأمان على الدوام ولابد من معرفة الرمز الذي يسمح لنا بالحرية ونحن ضمن السرب درءاً للتشتت.

لابد من رفض الخوف في أجوائنا فالخوف يعدم حقل الجاذبية. وحري بمن تحرر فعلاً دفن صرّة الظلم بعيداً حتى لا تُبعث في رحم أخرى أو يمر يوماً بقرب مردمها.

وحريّ بمن دفن صرّة الظلم هذه في أعماق التراب أن ينعم بجاذبيته الأرضية الرحيمة مرفرفاً للقاء صنوه في أجواء من الاكتشاف والثقة والمحبة.

إننا جميعاً نتحلى بصفة الجاذبية هذه ولكن ينقصنا مفتاحها ، الجرأة.

الجرأة في ممارسة الجاذبية.

وعلينا أن نختار.

أن نختار بناء أنفسنا ومقارعة كل ما من شأنه عرقلتنا في اكتشاف نفوسنا وتأكيدها. ومهمتنا شاقة بالفعل في التعرف على تلك الضغوطات، نزع القناع عنها وتجاوزها.

وبالعمل على أنفسنا أولاً وبتعزيز ثقتنا يمكننا التوجه نحو الآخر أحراراً كما ولدتنا أمهاتنا.

٤- الجرأة في الكينونة

إذا كانت وسائل التعبير والسلوكية الجذابة منوطة بجزيئات كيميائية وسيطية فإن شرارة البدء التي تقود إلى مثل هذه الإفرازات هي من اختصاص إراداتنا التي تأتمر بقشرتنا الدماغية وعلينا تخليص هذه الأخيرة من دثارها البالي أولاً.

obeikandl.com

الجاذبية هي بحد ذاتها غزوة للذات أولاً تبدأ بالجرأة في أن تكون أنت وهي التي تسمح بتفتح الحرية الداخلية الحقيقية مصدر تلك الجاذبية.

ولكي نتفهم هذه الجرأة فلنأخذ حالةً حدّيةً وهي جاذبية نجوم الفن في السينما والغناء وغيرها.

عندما يحل الفنان النجم على مكان ما يحلّ الصمت لحظة تسبقه موجة شبيهة بالصدمة تدوم لثوان معدودات..

من هو ذلك الفنان حتى يثير هذه الحالة عند البعض ويلعب هذا الدور من التصعّد؟

هل هو من طبيعة مختلفة عن صنوف البشر العاديين أم أنه ببساطة طورّ بعض ما نملكه نحن ولم نفعل مثله؟

لقد ردّ أحد الفنانين العالميين على إحدى معجباته بالعبارة التالية: "لست إلاّ واحداً من هذه المليارات من الحيوانات الإنسانية التي تسكن كوكب الأرض، لا تجعلي مني ما لست أنا عليه.."

إن أسوأ ما يمكن أن يحدث لمن سطع نجمه هو أن يبدأ بالاعتقاد بما أصبح عليه شخصه الخرافي.

إن الجاذبية بمفهومها المبسّط هي كالأناقة. فبقدر ما تظهر أقل صخباً تكون أكثر تمركزاً في ساحات رؤيتنا، والفنان النجم حقيقة لا حاجة له بالمعجبين والمعجبات كي يثبت وجوده وموهبته فالنجوم تلمع من ذواتها ولا حاجة لتسليط الضوء عليها كي نراها..

الفنان النجم بحاجة فقط أن يكون صادقاً في ممارسة وجوده بحرية وبلا خضوع لأية اعتبارات أخرى.

هو من يحترم عمله وبذلك يكون قد مارس كينونته بجرأة، والجذابون والجذابات هم كذلك أيضاً أناس قد زوّدوا في أنفسهم جهازهم الطريف بالجرأة اللازمة ليأخذ دوره في حياتهم.

obeikandi.com

الفنان الكوميدي على سبيل المثال مدرسة للجاذبية بعينها ولا ينجح ما لم يكن صادقاً أولاً فيما يعبر، بعيداً عن التهريج المبتذل، سهل الانكشاف.

يعمل الفنان عموماً بجهازه الطرفي أكثر من غيره لذلك فهو يبدو أحياناً كمن يخترق الزمن ولا يستدعيه وهي من خصوصيات قوة الجاذبية.

الجاذبية الحقيقية ليست بحاجة للآخرين للتصديق والتصفيق فهي التي تستحوذ على الآخرين ولا تُؤخذ بهم بل العكس هو الصحيح.

إن ما يميز هذا العصر فعلاً هو أنه ابتكر الجاذبية مشهدياً.

إننا بيولوجياً كالفنانين النجوم طبعاً، لمراكزنا العصبية نفس البنية التشريحية، تفرز المواد الكيميائية نفسها في النهايات العصبية.

ما يفرقنا عنهم دماغياً هو أن الفنانين قد تملكوا الإرادة لتأكيد شخصيتهم بقوة وصدق وحرية في الصوت والتعبير والصورة.

لماذا؟ كيف؟

لأن الفنان قد توقف عن القيام بدور المشاهد الشاهد على حياته فهو قد تملّكها، وهو بذلك قد أصبح اللاعب الرئيسي في دور الجاذبية..

الجهاز الطرفي هو الجزء المتمرد من الدماغ على سوار العقل.

المتمرد على كل الحسابات كما الجاذبية المتمردة على القيود وشرعنة السدود في النفس البشرية.

الجاذبية ليست سلطة بل فضّ لها لأنك بالجاذبية تتجه للآخر فيأتي إليك..

وهو ما يفتت ويذيب مفهوم السلطة في كل وقت، عندما تتساوى مع الآخر في الحب كما في الصداقة والأمانة تنتفي عنك وعنه الحاجة إلى السلطة. عندما تتجه نحو الآخر بجهازك الطرفي لا حاجة لك حينئذٍ لمرآة في رأسك تعكس لك صورة ما يرضيك في نفسك.

لأنك بذلك تكون قد عبرت المرآة نفسها وتركتها خلفك، إنك الآن تنظر إلى العالم من حولك بدون مرآة وتعيش مع الآخرين وبينهم بالحلول الخلوي لا بالاختراق

ولا علاقة للجاذبية بالتفوق على الآخر إلا بالجاذبية نفسها ولا يهم من يفتح الباب أولاً حين يُعتمد الحلُول.

إنني أبحث عن إعجابك فأنت تعجبيني، هذه هي السلطة، إن الجرأة في أن تكون أنت بجسدك وتاريخك وأخطائك، هو ما يلمع فيك أكثر مما تفعله النجاحات الباهظة الثمن في عصرنا.

الجرأة في أن تفعل ما تريد وتتذوق ما تفعل. الجرأة في أن تختار الحرية لتستجرّ إليها حرية الآخر، الجرأة في أن تكون على موعد دائم مع جهازك الطرفي راع لدفء الحرية على تخوم قطب الدماغ..

للأجهزة الطرفية لغة إنبعاثية لا تتأثر بَعنَتِ القشرة الدماغية وهي فوق ذلك كله غير انكسارية.

وليحذر الذين يبحثون عن "الطمأنينة" لذواتهم فما إن يجدونها حتى تستعبدهم لتسخر من جهودهم في البحث عنها..

وتنال من ذواتهم في أعماقها، تنال من مشاعرهم تجاه الآخر وتعمل حتى على حذفه من ساحاتهم.

إن الطمأنينة هذه هي كالجمال للجسد قد يريح ظاهرياً ولكنه في الحقيقة مصدر موثوق للمتاعب.

إن الطمأنينة هذه هي كالسلوكية المُطبقة على البعض كالقالب، قد تشعرهم بالحماية ولكنها كالرخامة فوق رؤوسهم إن من يفهم هذا كله هو كمن اكتشف الجاذبية الحقيقية..

ومن يدفع ثمناً كهذا يلتقي بالضرورة مع صراعاته وجراحه..

ولكن لا خوف عليه فهو مسلّح للانتصار بعد الانكسار وللتعافي بعد سقمه بسلاح الحرية التي ظفر بها ورعاها ويا له من رجل خطير..

obeikandl.com

رجل حوار شامل

إن الجهاز الطرفي لا يقيم تفريقاً بين أن نكون ذكوراً أو إناثاً، ويعتمد على تكاملٍ في المشاعر والرغبة في الاندماج.

عضو التناسل عند الإنسان هو في دماغه قبل أن ينتقل إلى الأسفل والدماغ هو في الحقيقة العضو الأول لهذه المهمة عندما نعمل بجهازنا الطرفي وهذا ما يفرقنا بالفعل عن الجنسية الحيوانية التي تعتمد بشكل رئيسي على الدماغ الإعاشي وهذا ما تعتمده في أيامنا عروض التعري، وما تنجح في الوصول إليه إنما هو نابع من مراكز حيوانية صرفة لا علاقة لها بالجمال ولا علاقة لها بالجاذبية.

عندما يسعى الإنسان إلى تملك الآخر أو إخضاعه لرغباته تتوقف جاذبيته لأن ذلك ليس من اختصاصاتها ولأن ما يجعل من الجاذبية قوة انتفاضيّة هو بالضبط عدم انخراطها في ميزان أية قوى وما دون ذلك هو الإفلاس بعين الفص الأيسر من القشرة المخية أساس تطور حياتنا الاجتماعية! إن الجراحة التجميلية لا تأتي بجمال ولا توجدُ جاذبيةً لجميل، وليست السبيل البديل نحو الذات في التعبير عن المشاعر والرغبات، الجاذبية طاقة لها مصدر ولها عندما تتحرر موطئ قدم تتفاعل فيه، ولو حلّت في غير موقعها لما ارتدت على أعقابها فهي من صنع الأريحية.

الضحك شريك الجاذبية وهو انقلاب على وجوم العقل لأنه الحرية في تجاوز الحقيقة وعليه يخضع الضحك للحظر في أماكن ممارسة السلطة.. لأن الضحك محررٌ ومبتكرٌ لعلاقة مع العالم بلا شروط مسبقة.

ولأن هذه العلاقة إبداعية وليست اصطفائية ولا تخضع بالضرورة لضوابط الفصّ الأيسر من القشرة الدماغية. أما عن البسمة فهي من الروح كالضياء تعلو الوجه بكامله. وهي بمثابة عرض خاص لجهازنا الطرفي وتكاد تكون منحةً منه.

ولكن فيزيولوجياً ما هي البسمة؟

يمكن لدماغنا الحركي المتمثل بالفص الأيسر للقشرة الدماغية القيام برسم البسمة على الشفتين عضلياً حركياً ولكنها ليست البسمة التي في خاطري.

obeikandi.com

البسمة التي في خاطري أسرع من ذلك بكثير بيولوجياً.

إنها تنير الوجه بكامله عند طريق التناغم الحاصل ما بين مختلف عضلات الوجه، وبفضل النواقل العصبية تأخذ الحركة هذه رونقاً ينعكس في الوقت ذاته على تعابير النظرة بالإضافة إلى اتساع حدقة العين وحجم الرئتين.

كل هذا من فعل جهازنا الطرفي اختصاصاً وبأجزاء من الألف من الثانية!

وهي في سرعتها هذه تضاهي سرعة فعل المضادات المناعية الطبيعية..

فمنذ الولادة عندما نملأ أجواء الوليد بالبسمات نؤسس لعلاقة مبنية على الحب تبقى طويلاً حتى تلامس فيما بعد تلافيف الطفل في لا وعيه.

إن البسمة هي بمثابة أول رمز اتصالي اجتماعي مع الوليد ولن يطول انتظارنا حتى نتلقى انبعاثاً بالرمز نفسه.

البسمة في حالتها الأولية هي عبارة عن نداء للاهتمام المتبادل وقد تكون مجرد رد بالمقابل. ولكي تصبح البسمة جاذبية لابد أن تخضع للمداولة قبل الحكم فيها على مستوى جهازنا الطرفي.

البسمة هي أفضل ما يمكن التشارك فيه مع الآخرين.

وهو أمر جدّي فعلاً يخيف الكثيرين من صنّاع القرارات ومسوّقيها، البسمة هي أفضل ما توصل إليه الإنسان بإنسانيته، تقع على محيط المعرفة بأمور الموت وأسرار الحياة.

وهي مجرد محاولة للتقرب إلى العالم.

البسمة لا تشيخ بل على العكس تزداد تألقاً مع الزمن وتزيد طيباً.

وأخيراً فإن البسمة لا جنسية لها، عالمية أممية لا تتبع لنظام أو سلطة أو فئة أو قبيلة.

أوليست الدبلوماسية سوق البسمة في البداية؟

obeikandi.com